مالك سمارة*

من أغاني الحرب الإسرائيلية (١٩٤٨-٢٠٠٦): بين سكرة النصر.. الدعابة.. وتبجيل الموت

أغنيات الحرب صنعة إسرائيلية قديمة، ضاربة في جذور العنف التي استمدّ منها المشروع الصهيوني وقود ديمومته؛ منذ الأهزوجات الشعبية لحرس المستوطنات الصهيوني زمن الييشوف، إلى أغنيات الحرب العالمية الثانية، وصولًا إلى دباغتها قوميًّا وتأميمها باسم الجيش والدولة بدءًا من حرب ١٩٤٨. من هذا المأخذ، يمكن القول إن قصيدة الحرب هي صنف أدبي قائم بذاته في إسرائيل، ويؤلّف في مجمله، من العمومي إلى الدولاني، ومن الشعبي إلى التسويقي، مكتبة كاملة،

[١] تنطوي على مادة للنقد تجاوزتها الأدبيات العربية حتى الآن. ذلك بأن تلك الأغنيات تمثّل تاريخًا موازيًا للحروب، وتشفّ ما بقِر في نفوس العامة- أو ما تحب إسرائيل الرسمية أن تسمّيها "الجبهة الداخلية"- بينما تكون البلاد في حالة حرب، ويكون الجميع ظاهريًّا، يمينًا و"يسارًا"، "مدنيين" وعسكريين، في حالة تجييش مطلقة، لا مكان فيها للنقد، والسؤال، والاستدراك، وتوسّل الإنسانية العرجاء.

لكن فور أن تهدأ حمأة القتال، وتُرخي العسكرتاريا الصهيونية قبضتها عن الحياة العامة، تظهر تلك الأغنيات لتنمّ عمّا كانت تخبّئه الأزقّة، وتلهج به ألسنة الجماهير؛ هكذا وقع الاختيار في هذه المادة المختزلة على الأغاني التي تحكي "روح الجماعة" (Ethos) من كلّ حرب؛ بدءًا من حرب النكبة، إلى حرب لبنان الثانية عام ٢٠٠٦. تتوقّف هذه "الأنثولوجيا" المصغّرة عند هذا التاريخ لأن أغنية الحرب اختفت تقريبًا في إسرائيل بعد ذلك- وهذا مبحث آخر. وقعت ٤ حروب كبيرة – على الأقل- في غزة، منذ تموز لبنان، وثمّة حروب بين الحروب، من يوم إلى آخر، شمالًا وجنوبًا؛ لكن بلا أي "نوستالجيا" لحنيّة. ربّما لأن الزمن النيوليبرالي أخضع

* باحث متخصص في الدراسات الإسرائيلية.

كل شيء لـــشروط الســـوق، وربّمـــا أن الأغنيـــة الحديثـــة، المعولـــة، التـــي تكـــون أســـهمها رابحـــة ضمـــن الشرطيـــة نفســـها ، صـــارت مقصـــورة عـــلى ألـــوان الجذل/الكآبـــة، وربّمـــا أنّ غـــزّة لا ترقـــى إلى ملامســـة عاطفـــة الجمهـــور الإسرائيـــلي بـــأي معنـــى، وربّمـــا أن إسرائيـــل برمّتهـــا فقـــدت المعنـــى في كلّ تلـــك الحـــروب التـــي لا تنتهـــي.

حرب ١٩٤٨:"أليفِلت"[٢]

هـــذه الأغنيـــة مـــن كلمـــات الشـــاعر الصهيونـــي المحبّـــب إلى بـــن غوريـــون، ناتـــان ألترمـــان، وألحـــان ساشـــا أرجـــوف. هـــي الأغنيـــة الوحيـــدة المعـــدّة لفرقـــة عســـكرية في الجيـــش مـــن بـــين وفـــرة القصائـــد التـــي كتبهـــا ألترمـــان. في الســـابق، درجـــت الفـــرق العســـكرية عـــلى أغانـــي البطولـــة والفـــداء؛ أمـــا هـــذه فتحتفـــي بشـــخصية "الـــلا بطـــل" (Antihero) بـــين صفـــوف الجنـــد- هـــذا الـــذي لا يُـــرى؛ يُنفـــذ الأوامـــر وحســـب، لأنـــه لا قبـــل لـــه بغـــير ذلـــك، ويمـــوت منســـيًّا؛ لكـــن ينـــال رضـــا الـــرب في الأعـــالي، بصـــكّ مـــن ألترمـــان.

حبّذا أن نغنّي أغنية أليفلت
ونردد في صوت واحد:
رغم أنّه كان لّما يزل بعدُ صبيًّا
كان قنوطاً بائسًا
أشبعه الجيران والجارات همزًا ولمزًا
وقالوا لا شيء يجدي معه
أليفلت صبيّ بلا شخصية
ولا حتّى بِملّ[٣]

إن استُلبت من يديه لعبة
يقف مشوّشًا معقود اللسان
يتأتئ ولا يعرف فيمَ
وكيف ولماذا حدث ما حدث

وبدا كأن ما في جوراه غريب
لذا شيءٌ ما تهلّل وشدا
من دون "كيف ولماذا"
ولا إلى أين ومن أي حدب
ولا أيّان.. ولا أنّى.. ولا كم..
لأنّ كل ما في جواره كمنجات ومزامير
تبثّ لحنًا مضيئًا رنّانًا
ليتك تعرف جداء ذلك
نعمَ الصبيّ أنت.. أليفلت
في ليل الحرب
في حرز نيران مضطرمة
اخترق صوت ما أفراد الكتيبة:
الجبهة الأمامية معزولة
ذخيرتها نفدت منذ حين..
كذا أحسّ أليفلت وكأن على عاتقه
تعبئة مخزونات الذخيرة
ومذ كان لا يملك شخصيّة ولو بمقدار ملّ
زحف من تلقاء نفسه صوب النار

وبعودته جريحًا مثخنًا
جثا خائرًا.. وتمتم
تمتم من دون أن يعرف فيمَ
وكيف ولماذا حدث ما حدث

وفي دواخل رفاقه.. كان هذا غريبًا
ثمّ شيء ما تهلّل وشدا
من دون كيف ولماذا
ولا إلى أين ومن أي حدب
ولا أيّان.. ولا أنّى.. ولا كم..
لأنّ كل ما في جواره كمنجات ومزامير
تبثّ لحنًا مضيئًا رنّانًا
ليتك تعرف جداء ذلك

وفي ليلة ما.. هبط متوّجًا بخوذة من فولاذ
الملك جبرائيل
ثمّ زلف إلى وجدان أليفلت
الذي انبطح في موقعه على التلة
وقال: لا خوف
لا خوف يا أليفلت وتجلّد
قد نلت الرضا هناك في الأعالي
وإن لم تكن عندك شخصية بِملّ

هذا غناء سهل ولكن مبهم
لا مطلع له ولا خاتمة.. ولا تتابُع

غنّوه من دون أن يعرفوا فيمَ
وكيف ولماذا حدث ما حدث.
غنّوه هكذا غناءً غريبًا
لأن شيئًا ما تهلّل هنا وشدا

العدوان الثلاثي على مصر: "أمام جبل سيناء"[٤]

كتب الشاعر ومؤلف الأغاني الإسرائيلي يحيئيل مير هذه الأغنية خصّيصًا لفرقة "ناحال" في الجيش، ثمّ لحّنها موشيه فيلينسكي على نمط إيقاعي جوقويّ، لم يفوّت تلقيمه، تبعًا للحدث، بنفحات شرقية، عبر استدخال الطبول والدفوف. غنّيت سريعًا في عز العدوان الثلاثي على مصر، لتصبح علامة تلك الحرب في الذاكرة الإسرائيلية. الأغنية مشبعة بالرموز التوراتية، وفي إسقاط تلك الرموز على معالم الجغرافيا المصرية؛ بدءًا من عنوانها الذي يتوسّل حكاية تنزّل الرب إلى موسى في جبل سيناء أربعين ليلة قبل أن يبعث إلى بني إسرائيل لإنقاذهم من حكم فرعون.

ليست أسطورةً يا صاح
ولا حلمًا عابرًا
ها هنا أمام جبل سيناء
يشتعل العُلّيقُ[٥].. ويتلظّى
ثم تندلع الأغاني
في أفواه جحافل الأبناء
وبواباتُ المدينة
في قبضة الشمشونيين

يا لِجذوة الربِّ.. في عيون الفتية
يا لجذوةِ الربِّ.. في هدير العرَبات
سيحكون عن هذا اليوم يا أخي
يومِ عودة الأمة إلى جبل سيناء

يا صاحبي.. ليس هذا حلمًا
ولا رؤيا هذيان
هذا العُلّيق
من ذلك الحين حتى اليوم
يشتعل ويتلظّى
يمور بلحن الجبروت
في روح الرب
ربِّ شبيبة صهيون
وجُند إسرائيل

حرب ١٩٦٧: "عند بوّاباتك.. أورشليم"[٦]

بطبيعة الحال، تعدّ المعزوفة الشهيرة "أورشليم الذهب"، التي زادتها خاتمة فيلم ستيفان سبيلبيرغ "قائمة شندلر" شهرة، الأكثر اقترانًا باحتلال القدس عام ١٩٦٧. لكن الأغنية المصدّرة أعلاه، وهي من تأليف الشاعر الصهيوني يوسي جمزو، أكثر اقترانًا بالعسكرتاريا الإسرائيلية؛ فقد ظلّت فرق الضباط تغنّيها في حفلات التخرّج خلال السنوات القليلة اللاحقة لحرب الأيام الست. من هذا المنحى، تبدو كلمات الأغنية، المزهوّة بلذّة النصر، أحدّ دلالة؛ إذ تنتهي بلا مواربة، بعد استعراض نشوانيّ لكل استعارات القوة والغلَبة، إلى "حتميّة" الهيكل الثالث، الذي سيبنى بدماء الكهنة واللاويين- هذا كلّه، حقًّا، في أدبيات الجيش الإسرائيلي.

أقدامنا عند بواباتك.. يا أورشليم
ومدافعنا تهدُر لك أغنيتها في جوقة واحدة
وحدَها دموع الفخر في العيون
تتقاطرُ بصمت.. على البزّة العسكرية، وصدارِ الذخيرة

صهيون[٧].. هلّا سألتِ عن حالِ أبنائك
يا صهيون.. إنها السعادة تجأر في صدورنا.. جامحةً
لعازفي اللحن على مدافعك.. لرنّة القنبلة اليدوية عند بوّاباتك
خذي من دمائنا حتى تعيشي

من الشيخ جرّاح إلى النبي صموئيل.. في كل ليلة
كانت رياح حرب ١٩٤٨ تترنّم باسمك في طريقها
"إن نسيتك يا أورشليم"[٨]
لكننا لم ننسَ.. وها نحن ذا

صهيون.. ألا تسألين؟
كم جلستِ وحيدة
ممزّقة وراء الأسلاك الشائكة
وكيف أقسمنا من أجلك.. يا مدينة الملوك والأنبياء
ألّا نلثم شفاه بناتنا

حتّى نقبّل الحائط الغربي
صهيون.. ألا تسألين؟
سيخضوضر جبلُ الزيتون.. ويتهيّأ جبل الهيكل
وتضجّ فيك المطارق.. يا لدويّها!
يا أورشليم.. كهنتك ولاويّوك
بالدم يبنون فيك الهيكل الثالث

حرب الاستنزاف: الرجل من الأغوار[9]

كتب هذه الأغنية حاييم حيفر، ولحّنها موني أماريليو، وغنّتها فرقة القيادة المركزية في الجيش الإسرائيلي. حدث ذلك كلّه بين أواخر عام ١٩٧١ ومطلع العام اللاحق، في خضمّ سنوات حرب الاستنزاف، وكان بطلب خاص من قائد الفرقة المركزية آنذاك رحبعام زئيفي، الذي أراد تخليد ذكرى قائد فرقة الأغوار في الجيش بعد ٣ سنوات من مقتله خلال العمليات شبه اليومية التي كانت تشنّها خلايا المقاومة الفلسطينية على حدود خطّ الهدنة مع الأردن. احتلّت الأغنية في عامها الأول المركز السابع في قائمة المعازف العبرية السنوية.

مثل حلمٍ سيبقى في الذاكرة
الرجل الذي مضى كعابر سبيل
عاضًّا على تفاحة
بين الغبار والرياح..
مسافرًا على متن عربة
إلى الأغوار

جميلة هي الأساطير
حتى تحلّق فجأة
إلى حيث.. الله وحده يعلم
ها أقمتُ برجًا
وحيدًا فيه حلمتُ
بفارسي على حصانه الأبيض

لاهبة هذه الطريق.. طويلة هي
وهو هناك.. بين أشواك الصيف
يتراكض كوحوش الفلا ليجد لي وردة
ثم يعود..
حاملًا لي ساق نبتة[10] من الأغوار

الطيور ازدهت وطارت
على ضفة نهر الأردن أحزمة القصب
يغمرها الماء
تنطلق الضحكات جذلة.. بلا سبب
وهو يمضي
يمضي بعيدًا.. رجلُ الأغوار

بين الغيوم يستتر قوس قزح
وما زال اللاسلكيّ يُخشخشُ
بكلمة أو اثنتين.. كرفيف جناحين
جاء ردّه
- "انتهى الإرسال"..
قال الرجل من الأغوار

جميلةٌ هي الأساطير...

حرب أكتوبر: ليس هنالك ما تقلقين بشأنه[11]

ألّفت الشاعرة الصهيونية تلما أليجون روز هذه الأغنية بطلب من الملحّن كوبي أوشرات، الذي أراد رفع معنويّات الجنود عندما وجدت إسرائيل نفسها تحت وقع الصدمة ونُذر الهزيمة للمرة الأولى في تاريخها. ربّما يتوقّع المرء هنا أغنية ملحمية، فيها من هدير اللحن والمغنى ما يهيّئ الجندي الإسرائيلي لأن يرمي نفسه بين فكّي الموت، بينما يعمّ شعور "أكون أو لا أكون" البلاد؛ إلّا أنها، على العكس من ذلك، جاءت محمّلة بروح الدعابة، وبشغب موسيقى "الروك"، وبدَعة لا مبالية بأن "لا داعٍ للقلق". غنّاها الفنّان الصهيوني عوزي فوكس بالفعل في جبهات القتال، حتى اقترنت بذكرى الحرب وما زالت تُردّدَ إلى اليوم، سوى أنها ألبستها، للمفارقة، لباس البهجة. هذه الأغنية لا تحكي فقط التحوّل في نمط الغناء الحربي الإسرائيلي، الذي ظلّ حتى حينها محافظًا على الأداء الكلاسيكي بين الحداد والفخر؛ بل أيضًا الاتجاهات الجديدة التي طرأت على المغنى الإسرائيلي، مع بداية التأثر بـ"صرعة" موسيقى "الروك" الثورية التي غزت العالم، وسخريتها النقدية اللاذعة. لكن المفارقة هنا أن تُقيّض هذه السخرية الثورية، النابعة من الشوارع عكس تيار منظومات الحكم والسيطرة، في خدمة المؤسسة والجيش. هكذا، مثلًا، تردّد المؤلفة، في مسعاها لتهوين الأمر، ما كتبه أخوها في برقية، طالبًا ملابس تحتية و"فانيلات"، ودون ذلك، "ليس ثمّة

مـا يسـتدعي القلـق". لكـن كان لأخيهـا طلـب آخـر:"ورق التواليـت"؛ لكنـه مُسـح مـن الأغنيـة لأن اسـتعداد الجمهـور الإسرائيـلي للدعابـة توقـف عنـد هـذا الحـد.

ليس هنالك ما تقلقين بشأنه
أنا آخذ حِذري وألبس أيضًا سترة
ليس هنالك ما تقلقين بشأنه
هذا إسراف.. كل شيء على ما يرام
لا تقلقي.. كل شيء هنا رائع
نمطرهم بالقنابل كما ينبغي
حقًّا لا ينقُصنا شيء

ليس ثمّة ما تقلقين عليه
هنا نخيّم ونمرح
وقد حظينا بالأمس حتى
برفاهية للاستحمام
لا تقلقي.. إني أنام
وأحلم بك
حين أعود إلى البلدة سنتزوّج

أرسلي لي ملابس داخلية وفانيلات
هنا الكلّ تقريبًا كالوحوش
يقاتلون كالسباع
والمعنويّات عالية
ولدينا في السريّة
يطلبون بعض الراحة أحيانًا
والحلوى أيضًا.. لا ترسلي لي كعكة

ليس ثمة ما تقلقين عليه
أنا في مكان آمن
وبين الإطلاق والانفجار
هناك وقت للراحة
ليس هنالك ما تقلقين بشأنه
أيتها الطلقة الجميلة
الصبرَ يا فتاتي
حقًّا ما من داعٍ للقلق

أرسلي لي..

حرب ١٩٨٢: لا تضيئوا لي الشموع[١٢]

هـذه أغنيـة أخـرى برسـم موسـيقى "الـروك"، لكـن في الوقـت الـذي ظهـرت فيـه، كان "الـروك" قـد اسـتدخل أشـكالًا جديـدة، تنـزاح عـن السـخرية إلى السـوداوية، وعـن الثوريّـة إلى العدميـة. أغنيـة "لا تضيئـوا لي الشـموع"، التـي كتبهـا دانـي دوتـان وأدتهـا فرقـة "كليـك"، كانـت واحـدة مـن هـذا الطـراز. تنحـو الأغنيـة، في مقطعهـا المصـوّر وفي كلماتهـا، منحـى "تقديـس الهـلاك"، متقمّصـة موسـيقى "روك المـوت" التـي رافقـت القلـق الوجـودي في زمـن مـا بعـد الحداثـة. هكـذا نـرى في الفيديـو مشـاهد الجماجـم والرقـص حـول الجثـة الهامـدة، ونسـمع استسـلامًا مطلقًـا لفكـرة المـوت حـدّ الاعتنـاق. كلّ ذلـك كان موسـومًا بـروح هـذه الحـرب التـي سـاد فيهـا شـعور إسرائيـلي عـام باللـا جـدوى، لا سـيما بعـد خـروج منظمـة التحريـر مـن بـيروت، وطوابـير التوابيـت العائـدة بشـكل شـبه يومـيّ مـن سـاحات القتـال هنـاك. احتلّـت هـذه الأغنيـة الصـدارة في قائمـة المعزوفـات الإسرائيليـة الأسـبوعية، وأصبحـت دارجـة عـلى لسـان الجنـود في الجبهـات.

لا داعي لأن تضيئوا لي الشموع
كلّ هذا الذي كتبتموه.. حريّ بكم أن تمسحوه
فليضحك من يضحك.. أنا أريد الضحك أيضًا
لا داعي لأن تضيئوا لي الشموع

لا داعي لأن تكتبوا باسمي النعايا
ليس لي من سبيل.. لا تجهّزوا لي الثياب
هذا الغريب الذي اقتنيتموه..اتركوه لغيركم
ولا تضيئوا لي الشموع

الموت محتّم جدًّا.. إنه رابض في الزوايا
لا يتخيّر ضحاياه
واللقاء الذي تترصّدون.. قضى بتأجيله
لا داعي لأن تضيئوا لي الشموع

لا داعي لتعزية النائحين
اللباقة تقتضي إدراك القواعد
تلك الدموع التي بيّتّموها.. اذرفوها لغيري
لا داعي لأن تضيئوا لي الشموع
لا لا... هذا لا يخز بي أبدًا

حرب لبنان ٢٠٠٦: "إلى الشمال مع الحب"[١٣]

الأغنيــة التــي ألفهــا دودو بــاراك، ولحّنتهــا نوريــت هــيرش، هــي مــن إصــدار القيــادة الشــمالية في الجيــش الإسرائيــلي، خــلال حــرب تمــوز عــلى ٢٠٠٦. يعــرّج مغنّــي القيــادة الشــمالية هنــا عــلى جبــال الكرمــل حتــى هضبــة الجــولان وجبــل الشــيخ، وكأنهــا أراض مقضيــة لإسرائيــل؛ ثــم لا يقــف عنــد هــذا، مناغيًــا أراضي "الشــمال البعيــد"، ثــمّ دونهــا عمــون (عمــان)، ومــا يليهــا مــن فلــوات.

حينما ترسل الشمس ابتسامةً أخيرة إلى جبل الشيخ
في يوم خريفي عاصف
سيرنّ هاتف القيادة الشمالية
هؤلاء نحن قادمين من وراء الحدود

أنتِ وأنا، والخريف، سنشيّد قصرًا
على جبل الضباب.. فوق السحاب
هناك ستزهر العناصل والزعفران
وترسل الابتسامات بيضاءً

ألف أغنية للجولان شمالًا حتى جبل الشيخ
من طبريا وحتى الهضبة
سنعزف وغناؤنا سيصعد إلى عمون[١٤]
ويدوّي صداه حتى الصحراء القاحلة
من مزالق الجليد إلى دوي الأجراس[١٥]
يعلو غناؤنا بسلام
سنمسك بجلبوع وطابور وعتسمون[١٦]
ونشيد الجنود يحدونا

ويحدو أغنية الشمال البعيد
لبلاد البرد والريح
التي ستشعل القلب حبورًا
وتبدد رماد النفس

ألف أغنية للجولان شمالًا حتى جبل الشيخ
سيأتي يوم وتطلّ الشمس باسمة
وستنحدر الثلوج من الجبال
ستنساب الجداول بين تلاوين الأزهار
وفي الشوارع الزرقاء الباردة

أنتِ وأنا، والخريف، سنرجع إلى بيتنا
سلامًا عليك.. مملكةَ الصقيع
سنلتقي في الجبال.. يا جنود الشمال
في العام القادم سنعود

الهوامش

١ انظـر، عـلى سـبيل المثـال: حيـاة ميلـوا، قصائـد في مخـزن الذخـيرة: أغانـي فلكلوريـة لجنـود ومجنـدات إسرائيـل، ٢٠١٦، الجامعـة المفتوحـة. عـلى الرابـط:
https://kotar.cet.ac.il/KotarApp/Viewer.aspx?nBookID=1037968
50&ts=1679758737031#5.478.4.default

٢ الأغنية على يوتيوب، بصوت إريك أينشتيان:
https://www.youtube.com/watch?v=eFXPnzCUj1c

٣ العملـة النقديـة الأقـلّ قيمـة مـن بـين مـا تداولـه المسـتوطنون اليهـود في زمـن الانتـداب البريطانـي

٤ الأغنية على "يوتيوب":
https://www.youtube.com/watch?v=BHuZFHl7CG8

٥ هـذه اسـتعارة توراتيّـة مـن سـفر الخـروج (١:٣)، حينمـا وفـد مـوسى إلى جبـل سـيناء حيـث كلّمـه اللـه، فـرأى مـلاك الـرب يسـتقبله وفي يـده غُلَّيقـة تشـتعل ولكـن لا تحـترق.

٦ رابط الأغنية على "يوتيوب":
https://www.youtube.com/watch?v=PtkjdkIt0Zg

٧ صهيـون في الروايـة التوراتيـة هـو اسـم إحـدى التلّتـين التـي بنـى عليهمـا النبـي داود القـدس، وهـو أحـد أسـماء القـدس في اليهوديـة أيضًـا.

٨ عبـارة كان يردّدهـا اليهـود في حفـلات الزفـاف عـبر التاريـخ في تذكّر أورشـليم، تتمّتهـا: "إن نسـيتك يـا قـدس، فلتنـسَ يـدي اليمنـى حرفتهـا، فليلتصـق لسـاني في سـقف حلقـي، إن لـم أقـدّم أورشـليم عـلى سـعادتي".

٩ رابط الأغنية على "يوتيوب"- بأداء فرقة قيادة المركز:
https://www.youtube.com/watch?v=1VgTPuugNqo

١٠ في العبريـة، قـد تأتـي الكلمـة نفسـها، مجـازًا، بمعنـى فوّهـة البندقيـة.

١١ رابط الأغنية:
https://www.youtube.com/watch?v=pmFpjBUhPA4

١٢ الأغنية على "يوتيوب":
https://www.youtube.com/watch?v=bQaJkLD7DrU

١٣ الأغنية على "يوتيوب":
https://www.youtube.com/watch?v=czy1RGQpehg

١٤ اسـم عـبري لعمّـان، وهـو مشـتق مـن مملكـة عمـون التـي أسسـها العمونيـون، وهـم أحـد الشـعوب السـامية؛ خرجـوا مـن الصحـراء العربيـة السـورية إلى حـدود الأردن الحاليـة في الألفيـة الثانيـة قبـل الميـلاد.

١٥ ربّمـا المقصـود بذلـك مـن جبـل الشـيخ إلى القـدس، بالنظـر إلى أن الأجـراس ذات رمزيّـة دينيّـة.

١٦ واحـد مـن سلسـلة جبـال البطـوف، وغالبًـا هـو جبـل الديدبـة الواقـع قـرب كفـر منـدا شـمالًا.